الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

عنوان المقال:

تحولات ما بعد ما بعد الحداثة, النقد التفاعلي وسرديات الحداثة اللامتناهية

- من المساءلة المنهجية إلى الإجراء النقدي-

الاسم واللقب: محفوظ ملاوي

الجامعة: جامعة الشهيد حمه لخضر- الوادي-

البريد الإلكتروني: malaoui-mahfoud@univ-eloued.dz

الملخص:

تسعى هذه الورقة البحثية إلى إبراز التحولات الابستيمية للفكر الحداثي الغربي, والجدلية القائمة على التقاطع الفلسفي بين مختلف التيارات الأدبية/النقدية, والتحولات المتسارعة قبل عصر النهضة وما بعدها.

إن كل مرحلة مر بها الفكر الغربي من عصر النهضة إلى عصر الأنوار إلى الحداثة وما بعدها, هي مرحلة متداخلة متشابكة متزامنة ضمن المرحلة المعاصرة التي تمتد بدايتها إلى ما يزيد على مائة سنة أو أكثر.

لم بتوقف الفكر الغربي منذ عصر التنوير إلى الآن عن مساءلة أساليبه، ومقوماته،الأمر الذي أفضى إلى أن بكون النقد طريقه الأوحد. ومنذ إرهاصات الحداثة الفكرية وما بعدها،والحداثة لم تكف عن محاسبة نتائجها، وببدو أن سؤال ما بعد ما بعد الحداثة تم داخل المنظومة الفكرية الغربية.

وفي اعتقادناأنتلك التغيرات التي مست مختلف الأفكار، والنظم والمعتقدات، والثقافات تهدف بالأساس إلى تحطيم تلك القواعد البالية والقوالب الجاهزة التي شكلت صورة نمطية قارة عنالمجتمع الغربي ماديا واجتماعيا ثقافيا, ويبقى التساؤل الملح عن فلسفة ما بعد ما بعد الحداثة والقطائع المعرفية المتاخمة للمشروع المابعد الحداثي أمر منطقي ومشروع.

الكلمات المفتاحية:الحداثة, ما بعد الحداثة, ما بعد ما بعد الحداثة, القطائع المعرفية, الفكر الغربي, نقد المشروع المابعد الحداثي.

Abstract:

This research paper seeks to highlight the epistemic transformations of Western modernist thought, the dialectic based on the philosophical intersection between various literary/critical trends, and the rapid transformations before and after the Renaissance.

Every stage that Western thought has gone through, from the Renaissance to the Enlightenment to modernity and beyond, is an intertwined, interconnected, and simultaneous stage within the contemporary stage, the beginning of which extends to more than a hundred years or more.

Since the Enlightenment to the present, Western thought has not stopped questioning its methods and components, which has led to criticism being its only way. Since the beginnings of intellectual modernity and beyond, modernity has not stopped holding its results accountable, and it seems that the question of what is after post-postmodernity has been asked within the Western intellectual system.

We believe that these changes that have affected various ideas, systems, beliefs, and cultures aim primarily to break those outdated rules and ready-made molds that have formed a stable stereotype of Western society materially, socially, and culturally. The urgent question about the philosophy of post-postmodernism and the cognitive ruptures adjacent to the postmodern project remains logical and legitimate.

Keywords: *Modernity, postmodernism, post-postmodernism, cognitive ruptures, Western thought, criticism of the postmodern project.*

السيرة الذاتية:

الباحث : محفوظ ملاوي, من مواليد الفاتح من شهر جويلية, عام ألف وتسعمائة وثلاثة وسبعين, متحصل على درجة الدكتوراه في الأدب العربي, جامعة الشهيد حمه لخضر الوادي بتقدير: مشرف جدا.

تخصص: النقد والدراسات الأدبية. المخبر: بحوث في الأدب الجزائري ونقده.

تقديم:

شهد العالم الغربي منذ بدايات القرن التاسع عشر موجة من التغيرات الجذرية،مست الأفكاروالنظم والمعتقدات، والثقافات والقوالب الجاهزة التي شكلت صورة نمطية , في المجتمع والثقافة والأدب والسياسة والاقتصاد بحثا وتطلعا نحو عوالم أخرى جديدة, يخرج في ظلها الانسان الغربي من سطوةبعض القوى التقليدية التي رمت به في غياهب الجهل والتخلف، وشلت قدراته بتحديات واهية فقدت ضمنها الذات طاقاتها ودرت إمكاناتها الحيوية ورغباتها وصودرت في ظل القوانين التعسفية الجائرة.

كل هذا تمخض عنه ما يعرف بالمشروع الحداثي, الذي شقت معه أوروبا درب العلم، والمهارة والتقنية الذي أخرجها من بوتقة الظلام الحالك الذي خيم عليها فترة عصور الظلام, أو القرون الوسطى، وبهذا دشنت الحداثة عصرا جديدا قادرا على الانتاج والعطاء في مختلف المجالات، إنه عصر النهضة والحضارة والتقدم المادي الذي بموجبه أصبحت الشخصية الغربية الحديثة شخصية مدمرة, لا تعرف قيودا ولا حدودا, حيث لم تكتف بقهر الطبيعة واستنزافها بل اتجهت نحو بقية العالم نهبا لموارده وثرواته فكان العالم الثالث اللقمة السهلة والفريسة الطريدة .

الإشكالية:

والإشكال الذي نريد الإجابة عنه متعدد الوجوه, متشعب, ومستفز في الآن نفسه: ذلك أن (براديغم الحداثة وما بعدها), شكل منعطفا حاسما من التمثل والمراجعة والتجاوز.

فماهي الحداثة الفكرية/ النقدية؟, ماأصولها النظرية؟, وما المقصود بما بعد الحداثة؟ وما المقصود بما بعد ما بعد الحداثة؟ وما هي القطائع المعرفية المساهمة في بلورة هذه المفاهيم؟

الفرضيات:

من أجل الإلمام بجوانب الموضوع والإجابة على الإشكال المطروح، تم وضع الفرضيات المناسبة لهذا الغرض والتي تم صياغتها كالآتي:

- إلى أي مدى يمكن اعتبار الحداثة فكرة بريئة؟
- هل حققت الحداثة ما وعدت به في أدبياتها وممارساتها؟
- هل ما بعد الحداثة تجاوز للحداثة؟ أم استمرار لها؟
- ما المقصود بما بعد ما بعد الحداثة؟
- هل هناك تقاطعات مفصلية جامعة؟ أم قطائع جوهرية مانعة؟

أهمية الدراسة:

من منطلق الاهتمام بما يجري من تحولات جذرية تخص العالم الحديث والمعاصر, وتقدم مقاربات ابستيمية للحداثة الفكرية الغربية, وما يدور في أروقة مطبخها من أصناف الموائد التي تتحين باستمرار,كان لزاما على القارئ الوعي ب:

- تلك التحولات, وفهم الأسس والمنطلقات المؤسسة لها.
- مساءلة تلك الأفكار/المفاهيم, ومناقشة مخرجاتها في ضوء الراهن الحالي.
- مدى تأثيرها على الصعيد الاجتماعي والثقافيبالنسبة للمجتمع العربي.

الحداثة, من الميثوس إلى اللوغوس:

إن دهشة الإنسان اليوناني القديم وحيرته أمام الحركة المتجلية في الواقع ورغبته فدي فهمها واختراق عمق الغموض فيها، أدى إلى نشوء مدا يسمى الاهتمام التاريخي عند اليونان، مدن أجدل معرفة الماضي التاريخي، ذلك ما تدل عليه دلالة لفظ التاريخ باللغة الاغريقية التدي تعني البحث والتقصي حول كل ما جرى حول ذلك تاريخيا.

تنشأ الأسطورة عن المعتقد الديني وتكون بمثابة امتداد طبيعي له، لذا فهي تعمل على توضيحه وتزويده بذلك الجانب الخيالي الذي يربطه إلى العواطف والانفعالات الانسانية، كما تعمل على تزويد فكرة الألوهية بألوان وظلال حية، لأنها ترسم للآلهة صورهم وشخصياتهم وتعطيهم الصفات والأسماء والألقاب، وتكتب لكل منهم تاريخه وسيرته الذاتية وتحدد علاقات بعضهم ببعض.[1]

"تهيّأ للكنيسة في العصور الوسطى سلطان واسع النطاق, ممدود الرحاب, روحيا بحكم وظيفتها, وسياسيا بسبب ضف الملوك والأباطرة"[2]. ونتيجة لذلك سيطرت على التعليم في المدارس واحتكرت لنفسها تأويل الكتاب المقدس وأدانت كل من جاهر بحقيقة لم تقرها من قبل, ومن لم يذعن لها تحيق به اللعنة[2].

وما ساعدها في هذا التغول هو وقوف الملوك والأباطرة إلى جانبها كما ذكرنا, واضطهاد كل من يخالف قراراتها/أحكامها, فأصبحت دور العبادة والجامعات في يدها, وحولتها إلى معاقل للاستبداد, وأوكار للرجعية[3].وكان من نتائج ذلك ما سطرته كتب التاريخ عن الانحطاط المجتمعي لأروبا في جميع المجالات.

مرحلة القطيعة, وتحرر اللوغوس(العقل):

نشأت الحداثة وتطورت عبر تحولات تدريجية قضت على البنيات والأفكار التقليدية القديمة، وأحدثت قطيعة معها، وأسست لتصور جديد للعالم يختلف ويتجاوز نهائيا التصورات السابقة. فقد كانت مفهوما حضاريا شامل لجميع المستويات المرتبطة بالوجود الإنساني سياسيا واقتصاديا واجتماعيا.

إن الباحث في موضوع الحداثة تعترضه الكثير من الصعوبات والعوائق التي تجعل من بحثه مغامرة،يصعب عليه الخروج منها بحلول جاهزة ومواقف نهائية،نظرا لكون الحداثة مفهوما خاضع لزوايا نظرمتباينة ومقاربات متعددة ، قد تكون تاريخية ،على أنها منجزات مرتبطة بعصر مميز ومحدد انطولوجيا،أو بنيوية على أنها جملة من القيم والمفاهيم التي صنعت الحضارة الغربية " كنمط حياتي وحضاري يتجسد فيهمستوى وعي وهذا ما يجعنا في هذا المقام نحاول رصد مختصر لمفهوم الحداثة بما يخدم المجتمع"[4].

لفظ (حداثة) مستعمل بكثرة منذ القرن العاشر الميلادي في المساجلات الفلسفية أو الدينية إما بمعنى ضمني، انفتاح وحرية فكرية، وإما عامي للدلالة على الخفة وحب التغيير لأجلالتغيير"[5]، غير أن المعنى الدلالي للفظ(حداثة Modernité)لم يتحدد ويتبلور إلا في القرن 19م. يقول (هابرماسHabermas): "على الرغم من أن الحداثةModernitéبوصفها اسم(وزوج التعارض قدماء محدثون),استخدمت بالمعني الزمني في وقت متأخر من العصرالقديم،فإن الصفة حديث لم تتخذ شكلا اسميا،في اللغات الأوروبيةالحديثة إلا في زمن متأخرجدا ـ تقريبا في منتصف القرن التاسع عشر"[6].

وما يمكن استخلاصه من هذه المفاهيم والتعريفات للحداثة هو:

- الطابع الشمولي الكلي للحداثة كنمط حضاري تتجسد فيه مختلف صور التقدم في شتى المجالات والميادين وعلى كل المستويات، "وتتميز بأنها تحول جذري على كافةالمستويات؛ في المعرفة، في تصور الطبيعة، وفي معنى التاريخ. إنها

بنية فكرية كلية".[7]تعبر عن انتقال من حالة للفكر إلى حالة أخرى تداخل فيها مختلف ابعاد حياة الإنسان، قادت إلى احداث ثورات متعاقبة و متتالية أدت إلى تغيير جذري طال كل أنماط الحياة.

-ترتبط الحداثة بالتاريخ الأوربي في نشأتها وتطورها، "فهي مفهوم غربي خاص لا نعثر عليه في أي حضارة أخرى"[8]. فالحداثة هي النمط الحضاري و الوعي المرتبط به الذي وصلت إليه المجتمعات الغربية نتيجة تطورات متعاقبة شملت جميع المستويات.

- الطابع النقدي للحداثة، فهي عملية تجاوز وانفصال دائم، "وتشير إلى عصرجديد، إلى عهد تقدم غير محدود وتحرر تدريجي الإنسان تجاه مكاسب التراث والتقليد"[9].

من خلال ما سبق ذكره عن سمات الحداثة نستنتج أن فلسفة الحداثة تقوم على رؤية ذاتية للوجود تعكس القطيعة مع الرؤية التقليدية المؤسسة على الميتافيزيقا وتؤسس للتوجه الدنيوي، وعلى العقلانية كنزعة للمعرفة، وعلى العدمية أو غياب المعنى في مجال القيم الذي عكسته النزعة النقدية التي مثلت قطيعة مع المطلقات. ويعد (ر. ديكارت) المؤسس/المهندس الأول لها بمقولته المشهورة: "أنا أفكر إذا أنا موجود"[10].

وبحسب رأي أغلب النقاد فإن الحداثة لم تحقق ما وعدت به من الرقي والازدهار والأمان, رغم ما يبدو من مظاهرها المدنية بشكل عام, بدليل المآسي التي جرتها على البشرية, كالحروب والاستعمار والدمار الذي خلفته الثورة الصناعية على مدى قرون, ومازالت تداعياتها إلى يومنا هذا.

ما بعد الحداثة مشروع نحو العدمية :

تميز الخطاب الما بعد حداثي بكونه خطاباً تفكيكياً يستهدف التوقف الواعي لدى محطات الفشل التي أصابت مشروع الحداثة، والذي خلق أزمات متعددة الأبعاد، همشت الإنسان وأقصته، وغيبت أبعاد الإنسانية، خالقةً نزعة إنسانية، فقد برز هذا الخطاب ليناقش ويحلل أسباب ودوافع الأزمة ويسائل مصادرها وأبعادها، فقد جسدت أزمة النزعة الإنسانية مسألة مركزية في الفلسفة المعاصرة، واتُهمَ مشروع الحداثة حينها بالفشل الذي نجم عنه تصدع وانهيار ضمن القيم التي تأسس من أجلها، كقيم الوعي والعقل والإرادة. وتحت شعار العقل والتقدم والسعي نحو التحرر، وما يزيد من حدةِ الأزمة انقلاب هذه المفاهيم الشعارية إلى ممارسة ضدية، وهي أسباب وعوامل اجتمعت بغية إعادة الاعتبار للنزعة الإنسانية من خلال الاهتمام بالإنسان والتأكيد على أولوية الوعي والإرادة الإنسانية، واعتبر خطاب ما بعد الحداثة خطاباً تجاوزياً بحيث يتم الانقلاب جذرياً على تلك المبادئ والمفاهيم المعبرة عن حالة العجز والقصور.

يرجع الكثير من المفكرين أصول وبدايات تشكل هذا الخطاب إلى (نيتشه) الذي أعلن عجز الحداثة وهرمهما وشيخوختها،" فنيتشه يقترح مشروعاً مستقبلياً، يلوح فيه الإنسان مريداً وتواقاً نحو تسلق الجبال والقمم قادِماً من الأماكن الفسيحة الوعرة، وواجبه أن يحقق ذاته وأن يرتقي دون شفقةٍ على نفسه وعلى الأخرين فهو الذي يحدد معتقداته وأخلاقه، ولا يؤمن بأي مصدرٍ سوى إرادته، إرادة القوة "[11].

يمكن أن نثري هذا المبحث بموقف الفيلسوف (هابرماس) المبدئي من الحداثة عبر حوارية يقيمها مع الفلاسفة الحاملين للواء الحداثة والمدافعين عنها من جهة، وبين قطب ثانٍ من الفلاسفة الرافضين لذات المشروع الحداثي.

يقول (جيمسون*F.Jameson*):ما بعد الحداثة ليست مجرد كلمة وإنما-على الأقل- مفهوم له وظيفة زمنية يربط بين ظهور نوع جديد من الحياة الاجتماعية ونظام اقتصادي جديد[12].

بدأت إرهاصات ثقافة ما بعد الحداثة في العالم الغربي كانعكاس مجتمعي من نقطة الوعي بمشكلات الحداثة، وعدم مقدرتها على مسايرة الواقع بشروطه الجديدة، اقتصاديا وسياسيا واجتماعيا . والحال أننا لابد أن نقرأ ما بعد الحداثة في ضوء مبررات ولادتها في أرضها الأم, بوصفها انعكاس لهذه الشروط الجديدة (الاقتصادية، والسياسية، والاجتماعية) في المجتمعات الغربية، وهو ما يكرس خصوصية الظاهرة بحكم نشأتها في الغرب تحديدا[13].

ويجبالنظر إلى تلك الثقافة باعتبارها نتيجة طبيعية لما مر به الغرب من تناقضات وانقسامات في الأيديولوجيات الحداثية، لاسيما في علاقة المركز بالهامش, وما نشأ عنها من قيم الاستغلال والاستعمار، وغياب المساواة، وسيطرة النخبة...إلخ؛ ومن الطبيعي أن تنشأ كنوع من ردة الفعل، اتجاهات مضادة تنادي بسقوط الأيديولوجيات، والسرديات الكبرى، ونهاية

الميتافيزيقا، وتطالب بالخروج عن كل قياس معياري، وربما تشيع أيضا ملمح الثقافة السلعية الاستهلاكية ورفض مقولات وفرضيات عصر التنوير، وخطاب الحداثة المتمثل في الإيمان المطلق بالعقلانية الشمولية[14].

تتجلى معارضة (هابرماس) المبدئية لفلاسفة ما بعد الحداثة واللذين اتخذوا برأيه مواقف معادية لتلك المرتكزات الحداثية القائمة على أفكار العقل والتقدم والحرية، فهم لا يمثلون سوى نزعة فوضوية، ذلك أن الاحتجاج والنقد للمشروع يعبر عن معنى, والنفي والرفض يعبر عن معنى آخر، وهؤلاء يجسد نقدهم المعنى الثاني، وفي ظل انتقاده لهذا التيار يقف (هابرماس) عند المرجعيات المؤسسة لهذا الخطاب والمتمثلة في الاتجاه (النيتشوي) والاتجاه (الهايدغري).

واللذين يتعرض لهما بالتحليل ضمن كتابه:(القول الفلسفي للحداثة), ناقداً النزعة التشاؤمية لدى (نيتشه) ميرزاً تأثيرها على الفلاسفة من بعدها وخاصةً فلاسفة المدرسة (هوركهايمر, أدورنو, ماركيوز), فقد تأسس الخطاب الفلسفي لما بعد الحداثة عبر اتجاهين: "الاتجاه الأول: يمثله الباحث المرتاب, الذي يسعى إلى الكشف عن انحراف إرادة القوة، ثورة قوى الرد, وتكوين العقل المتمركز على الذات, مستخدماً طرائق الأنثروبولوجيا وعلم النفس والتاريخ. يجد في (باطاي ولاكان وفوكو) خلفاء له, والاتجاه الثاني: يمثله ناقدُ الميتافيزيقا المتمرس, الذي يطالب بمعرفةٍ خاصة ويعيد رسم تكوين فلسفة الذات بدءاً من أصولها السابقة لسقراط فإنه يجد في هايدغر ودريدا ورثة له [15]

إن الخطاب النقدي الما بعد حداثي يتأسس من منظور(هابرماس)، بكونه خطاباً وإديا/قبوريا، فهو يبتر كل ما أنتجته الحداثة وما حققته طيلة عمرها الممتد، إن هذا الخطاب يحمل الكثير من الإجحاف والإنكار ذلك أن للحداثة الكثير مما حققته وستحققه كمشروع متجدد، لقد كان من الأجدر للخطاب الما بعد حداثي في تصور (هابرماس) محاسبة العقل وتنقيح أخطائه لا أن يتم إعدامه وإلغاء جذوره بحجة بدعوى اللاجدوى والحجر عليه نهائيا.

يستأنف هابرماس خطابه النقدي للخطاب الما بعد حداثي، وفي هذا السياق يعتبر هابرماس أن فوكو يجسد أبرز خطابات ما بعد الحداثة عبر نقد مركزية العقل, والتوجه نحو (الحفر *Arcyolgie*) أين يعيد فوكو طرح السؤال الكانطي ما الأنوار؟ داعياً إلى ضرورة الكشف عن كافة أشكال الوصاية والهيمنة والتحرر منها "فالمنهج الأركيولوجي منهج لا يكتفي بالوصف أو بالتحليل بل مهمته المنهجية هي إبراز التمفصلات الخطابية، كما ليس من صلاحياته الحكم أو التأويل, كما أنه منهج يرفض أن يتخذ صفة العلمية"[16]، يستهدف الكشف عن تلك العلائق الكامنة وراء الأنساق المعرفية, وهذه الأخيرة تعبر عن ترابط إبستيمولوجي في فترة ما, ويحكمها نظام محدد يصطلح عليه (فوكو*)بالإبستيمي وهو يمثل "شرط الإمكان المعرفي الذي يحدد الأطر التي تتحرك فيها المعارف في كل عصر من العصور، وهو إمكان تتوحد تحته كل المعارف وهو الذي يقدم القدرة على الكلام في ميدان من هذه المعارف"[17].

وكمحصلة يمكن القول ببساطة, إن الثقة لا ينبغي أن تنعدم تجاه الحداثة هذا ما ينبئنا به (هابرماس), وينبغي ضرورة الوثوق بقدرتها على تجاوز أزماتها وعلى طرح البدائل، فهي مشروع سائر نحو الاكتمال لا ينبغي مطلقاً التعجل في الحكم عليه.

يمكن أن نستأنس بهذا الحكم على الحداثة وما بعدها, الذي ينحو إلى التمثل ثم التجاوز بالنقد والمراجعة من حين لآخر, لأن الأمر في نهاية المطاف لا يعدو أن يكون تجربة انسانية, تحمل في طياتها بذور تجددها, مثلما تحمل بذور فنائها, وهذا كله يتوقف على الوعي الأخلاقي باللحظة الراهنة, ومخرجاتها على مستوى التصور والممارسة.

ما بعد مابعد الحداثة: النقد التفاعلي- نحو معتمد ثقافي جديد-:

إن الناظر والمتأمل فيجينالوجيا الفكر الحداثي الغربي, ومن خلال عملية الاستقراء والتتبع, يكشف عن الحدود البينية للمجهود الفلسفي منذ سقراط وصولا إلى هايدغر، انتقالا من اعتبار الله والمثل العليا مركزا كونيا، ثم مداركل المعارف على هذا الأصل. إلى الاهتمام بالطبيعة في جانبها المادي كقطب مركزي جديد, انصرفت نحوه البحوث والدراسات مدفوعة بالنزعة الوضعية, وفلسفة العلم التجريبي, والفلسفات العقلية التي لا تؤمن بغير لغة العلم والعقل، ليأتي الدور الثقافي على عصر التنوير وآبائه (ديكارت، كانط، وهيجل) الذي أنجب الحداثة فكرا خلافيا وثورة ابستيمولوجية لا تؤمن بغير العقل سبيلا للمعرفة.

وحين يراجع الحداثي -مفكرا كان أو فيلسوفا- نفسه يقف على بذور فناء ما قد تبناه, ليلقي بعهد الحداثة بعيدا,ويعلن عن ميلاد مشروع آخر, هناك من رآه تكميليا للذي قبله وإن عارضه, وهو مشروع ما بعد الحداثة الذي دمر القيم الثقافية التي

ألهتها الحداثة وشتت نهجها جاعلا من الانسان محورها الثقافي الجديد، "وما كتابات ديريداوبودريار وفوكو وكوهين وروورتي إلا نماذج من الثقافة الجديدة، ثقافة الدوران حول الذات الحرة في القراءة والكتابة والعمل وسحقا للمحاور الثقافية الأخرى "[18], وهناك من يراه قطيعة معه, وبين هذا القول الذي تجسد واقعا يالبنيوية كمنهج لساني, وذاكالذي تجاوزها إلى مابعد البنيوية؛ نشأ براديغم جديد اطلق علية مابعد مابعد الحداثة, أو الأدب والنقد التفاعلي, وهو فيما نعتقد مشروع منفتح على مابعد السرديات الكبرى تاريخيا, "...يصوغها الحاضر بتعقيداته، بقدر ما يصوغها الماضي بتجلياته وخفاياه. كما يصوغها، بقوة وفعالية خاصتين، فهم الحاضر للماضي وإنهاج تأويله..."[19], وهو مشروع متعدد المجالات/التخصصات؛ ظهر بعد النقد الثقافي في الغرب خاصة(أمريكا), ومع انتشار الثورة التكنولوجية, والوسائط الرقمية في أوربا. هدفه جعل الأفكار المبعثرة في الزمان والمكان فكرة واحدة, يتحكم فيها من ناحية السلوك والطقوس الروحية والسلوكيات الحياتية، وما يتبعها من أسئلة يمكن إثارتها، مثل: هل مازالت تلك الافكار/المعتقدات قادرة على توجيه المنجز الروحي المتشكل في منتجات الأدب والفن على الرغم من التنوع الهائل والمتدرج؟، من حيث كون بعض تلك النصوص مع الوقت تشكل في ذاتها سردية كبرى أو صغرى جديدة؟. وإن كان الهدف مبطنا لا يظهر عند الكثير, والسبب -من وجهة نظر شخصية- هو عامل القوة والجذب الذي أحدثته هذه الوسائل/الوسائط, فتلاشى معها الوعي الخلاق, والحدود العقدية الفاصلة, والتأثيرالفعال, وأصبح الجميع مبرمجا بطريقة ساذجة, منقادا لفكرة كونية هابطة, نراها في الفن باسم الحرية, وفي الأدب باسم الثقافة, وفي الصناعة باسم التملك/القوة والسيطرة, وفي الاجتماع باسم الفوضى والتفرق, وفي القانون باسم الغلبة للأقوى, وفي علم النفس باسم التفسخ والانحلال.

السرديات التفاعلية, نسق الهيمنة ونقد المضمون:

منذ أيام تطالعنا المواقع عن بعض الشخوص الهوليودية المنفتحة بأمريكا, في حفل عالمي, يخص مسابقة لبعض الأفلام المعروضة, منقول عبر الوسائط الألكترونية المختلفة(السوشيل ميديا) , يشاهده الآلاف, وعندما وصلت إلى عنوان فلم (الله خالق الكون), تبجحتبالقول الساخر: "الله خالق الكون حصل على صفر", وأردفت قائلة: "هذه النتيجة ليست مفاجئة في مدينة ملحدة".

إن هذا القول برغم ما يحمله من واقع حاصل, كان -ولا يزال- يشكل سردية قائمة في الفكر الجمعيالغربي منذ نيتشة مرورا بديكارت ومن بعده, والغاية منه هو تقويض فكرة الاله الخالق الحق, الذي نؤمن به -نحن- ايمانا جازما.

والاستغناء عنه بالكلية, نتيجة الطغيان المادي الذي سيطر على الفكر البراغماتي الغربي, إلا أن ما حصل بعد هذا النقد الساخر يدعو للتأمل والعبرة...

هل الإله يغضب؟, وهل ينتقم, إذا ما جاوز العقل حدوده في التجني والسيطرة والتمركز؟, وهل هذا ينذر بقرب النهايات؟... نعم لقد غضب الاله, حين طغى الانسان بالعلم الذي حرره في يوم ما, "عَلَّمَ ٱلإنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ (5) كَلاَّ إِنَّ ٱلإنسَٰنَ لَيَطْغَىٰ (6)" سورة العلق الآية:5-6.

وكانت النتيجة الحتمية, هذه الأعاصير الممزوجة بالنار التي أصابت المركز السردي التفاعلي بهوليود, وجعلت ما كان يبعث على القوة والتعالي, في النفوس المنبهرة بخطاب الصورة, تجاوبا, وتأييدا وتعليقا, حصيدا كأن لم يغن بالأمس, إن هذه الصورة المشهدية التي رأيناها وتفاعلنا معها, ماضيا وحاضرا, تشبه إلى حد ما هذا المثل الذي ضربه الله في كتابه الكريم, قال تعالى:﴿ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللّهُ لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾. البقرة:266.

فهذا المضرب القرآني يلخص تلك الحالة قبل وقوعها أصلا, ويقدم ذلك في صورة (فلاش باك), عن فطرة كل إنسان يحب الثراء والتملك, ولكن هذا الانسان كبير السن عاجز عن التمتع بما أنعم عليه, وله ذرية صغار ضعفاء, لا يستطيعون القيام بشؤونهم, ورعاية أبيهم المسن, والتمتع بهذه النعم, وفضلا عن ذلك أصابها الهلاك والدمار, بعدما كانت تسر الناظرين.

إن هذا المثل الحي, يلخص لنا دورة أي حضارة مادية, بدأت في التشكل والتطور, إلى ان وصلت إلى الذروة, ثم السقوط والانحدار الحتمي. وهو يشبه تماما ما حصل بمدينة (كاليفورنيا) بالولايات المتحدة الأمريكية بالضبط, حيث الأنظار مشدودة إلى هذا البلد, تتمنى أن تعيش تلك الأجواء, وتسكن تلك الأرجاء, وتعيش لحظة مادية عل منوال القوم, ونتيجة الخروج عن نسق العدل, والتجني بالباطل, والشطط في الحكم, حصل ما كان ينبغي, والجزاء من جنس العمل.

وما دامت جميع الحضارات بنيت في أحضان الفكرة الدينية, كما يتصور مالك بن نبي-رحمهالله-, انطلاقا من العناصر الثلاث (الانسان, التراب, الوقت), فإن أي خلل يقع بين هذه العناصر سيؤدي حتما إلى السقوط.

حيث يقول: إن الحضارة ما هي إلا نتاج فكرة جوهرية تطبع على المجتمع في مرحلة ما قبل التحضر الدفعة التي تدخل به التاريخ[20]، وغالبا ما يربط مالك بن نبي هذه الفكرة بالدين، ويسميها الفكرة الدينية أي كمركب catalyseur"،"حيث أن هذه الأخيرة حسب اعتقاده هي الوحيدة القادرة على الدخول على المركب الثلاثي للحضارة الذي تحدث عنه، وهو الانسان والتراب والوقت، من أجل الحصول على منتج الحضارة، حيث أن العناصر الثالثة موجودة في كل وقت, ولكن مجرد وجودها هكذا لا ينتج أو يخلق أي حضارة, فهو يعطي مثلا بالأكسجين والهدروجين المشكلين للماء، فمجرد وجودهما هكذا دون عامل خارجي لا ينتج أو يشكل الماء[21].

فالفكرة الدينية هي وحدها القادرة على المزج بين هذه العناصر الثلاثة، لكي تنتج حضارة، وهي القادرة على كبت غرائز الانسان المركبة فيه بطبيعته أو بفطرته، وهي القادرة على اعادة توظيف هذه الغرائز في الحضارة, من خلال بناء مجتمع متماسك. وهذا ما حصل واقعا بالنسبة للدعوة المحمدية التي قامت على عقيدة دينية واحدة, وحدت قبائل العرب, المهاجرون والأنصار تحت مظلة واحدة, ومنه بدأت الحضارة تشق طريقها وتنتشر إلى باقي المعمورة.

فالحضارة حسب مالك بن نبي تولد مرتين؛ المرة الأولى مع الفكرة الدينية، والمرة الثانية مع دخول الفكرة الدينية في الانسان، ودخولها بالتالي في التاريخ. أي بدخول الفكرة الدينية في الانسان، تصبح فاعلة في التاريخ لأن الانسان يكون فاعلا فيه.

وما دامت الفكرة الدينية الغربية, مبنية على التحريف, لا تؤمن بغير العقل سبيلا للمعرفة والحكم والتشريع, وهذا العقل بالاتفاق قاصر عن إدراك جميع الحقائق, عاجز عن إيجاد الحلول, زيادة على تعدد الطوائف والمذاهب المشكلة لتلك الفكرة, ومع وجود كل هذه المتناقضات داخلها (المنظومة الفكرية), فإن ذلك مؤذن بسقوطها وزوالها.

يقول مالك بن نبي-رحمه الله-:"و لكن أوضاع القيم تنقلب في عصور الانحطاط لتبدوا الأمور ذات خطر كبير، فإذا ما حدث هذا الانقلاب انهار البناء الاجتماعي إذ هو ال يقوى على البقاء بمقومات الفن والعلم والعقل فحسب، لأن الروح تتيح للإنسانية أن تنهض وتتقدم، فحيثما فقد الروح سقطت الحضارة وانحطت"[22].
كل هذه الاستفهامات, وهاته الإجابات القطعية تدعونا لكي نشك, ونشكك في هذه الصورة المشهدية من هوليود المركز, وهذا العقل المتعالي, من الانسان الغربي المرسل, إلى المتلقي العربي وغير العربي.

إن (السرديات الكبرى, وما بعدها) بحسب تصور(ليوتار) ماهي إلا لعبًا لغويًا مضلّلاً، وقوة خارجيّة خارقة تفسّر وقوع الأحداث الكبرى في تاريخ البشريّة، لعجز عن تأويل راهنيّة الحدث[23].

والسؤال المتبادر:هل مازالت هذه الأفكار قادرة على توجيه المنجز الروحي المتشكل في محراباللاهوت المسيحي, ومسرح الأدب والفن. على الرغم من التنوع الهائل والمتدرج في عملية التلقي على الذائقة الجمعية بشكل عام؟.

الجواب ببساطه نعم, لأن الفكر الغربي برغم تحرره من فكرة الصوت والكتابة بواسطة العقل(اللوغوس), إلا أنه قابع تحت نسق الحتمية التاريخية التي حاربها في يوم ما. لذلك تجده يغامر بغياء. وكان من نتائجها ما حصل واقعا بالانحدار والسقوط التدريجي, وهذا أمر نلاحظه على مستوى الفعل والممارسة(حروب, نزاعات, تدمير...) .

هل حان الوقت لنقد منظومة الفكر والقيم:

إن تحليل الحداثة الغربية بشكل عام يبين التطور الدلالي لمفهوم الإنسان في إطار المرجعية الغربية، فمنذ بداية نشوب صراع بين مركز -الإنسان والطبيعة- فصل الصراع في بداية الأمر لصالح العقل الإنساني، إذ تبين كرونولوجيا تطور الأحداث مع استهلال النزعة الإنسانية عن بداية اختفاء الله وراء القيم الإنسانية الهيومانية، حينما يبدأ الانفصال تدريجيا عن القيمة المطلقة، لتسود النسبية كل شيء، ويتسيد الإنسان كمرجعية، ليصبح معيارية ذاته ومركز الكون، فهو سوبرمان حقيقي، أو الإنسان المتفوق، بتعبير (نتشه)، الذي سلط نقدا لاذعا للوعي الأوربي، ورسم مدخلا لتحديد ماهية الكائن الإنساني الذي يتصوره, حيث يقر أن " الإنسان شيء ينبغي تجاوزه"، وهو في نظرهلا قيمة له في ذاته، وإنما قيمته باعتباره وسيلة إلى خلق هذا النوع الممتاز(الانسان الأعلى-السوبرمان-)، "فما هو عظيم في الإنسان إنما كونه جسرا لا

هدفا"[24]. وهذا التصور (النيتشوي) يخلو من أي دور حقيقي للمبادئ والأخلاق والشعور الإنساني.ويكرس فكرة التعالي, وهوما أوقعه في العدمية الوجودية التفاعلية, بشكلها التفاعلي الحالي.

إن هذا التصور فكر صادم لأساس وجود الانسان في حد ذاته, إذ هو"...عنصر روحي وليس عنصرا بيولوجيا, ولا يمكن أن يوجد إلا بفعل الخلق الإلهي"[25].

لقد سئم الانسان هذا الفكر/ المنطق منذ أن أحس بالخطر الداهم, نتيجة تدمير جملة القيم الروحية المسيحية التي كانت سائدة يومها, فنتج عن ذلك "موجة غضب عارم ضد الإنسانوية وتراث التنوير وتجسد ذلك في إدانة عارمة للعقل المجرد وكره عميق لأي مشروع يستهدف تحرير الإنسان عبر تحريك قوى التكنولوجيا والعلم والعقل"[26].

إن خطاب مابعد مابعد الحداثة خطاب إقصائي لا يؤمن بالقيم والمبادئ ولكنه ناعم, لا يشعرك بالتهميش, لأنك تتفاعل معه عبر التكنولوجيا سلبا وايجابا, ولكنه يسلمك للتغريب الذي يلازمك أثناء عملية التفاعل, بسبب قوة الشد والجذب الذي يسيطر على الذائقة التأملية النقدية في لحظة ما.

الخاتمة:

إن القولبوجود حضارة على أي أسس كانت أمر مسلم به, ولكن هذا التسليم والتدليل متوقف على توفر عنصرين لا ثالث لهما لكي تستمر ويكون لها شأن؛ العنصر الأول هو العنصر المادي المتمثل في الانسان والتراب والوقت, أما العنصر الثاني فهو العنصر الروحي, المتمثل في الدين.فالأول مرتبط بالثاني وجودا وعدما, كالطائر لا يستطيع الطيران إلا بوجود جناحين.

والفكرة الدينية في حد ذاتها, إما فكرة حقة, وإما باطلة, فإن كانت الأولى فلا شك أنها الباقية وإن حجب نورها, وإن كانت الأخرى فهي الزائلة وإن برق نجمها.

إن كل تخطيط حضاري لا بد أن يستند إلى محيطه الثقافي، ورصيده التاريخي، فالتنمية لا تشترى من الخارج دون ثقافتها وأسسها الفلسفية، وعلى المجتمع الذي يحتاجها أن يستلهم تكوينه العقيدي والفكري للتعرف على هذه القيم وتوجيهها لخدمة مساره الحضاري.

إن اقتفاء النموذج العلماني الغربي في النهضة، قد ثبت فشله على مستوى الصياغة الحضارية للشخصية العربية المسلمة، ولا أدل على ذلك من الواقع الحضاري المتخلف الذي نحياه جميعاً، الذي هو نتاج حقيقي للمذاهب والسياسات التي تستلهم وتقتفي آثار ذلك النموذج في النهضة . والذي أثبت فشله أيضا, بدليل السقوط الحر في العدمية والإلحاد.

إن القول بالقطيعة مع الماضي بالنسبة للمشروع المابعد حداثي الغربي, والتملص من قبضته النسقية بواسطة الحرية المطلقة, أنتج مظاهر أشد خطرا , وأسوأ حالا, لذلك آن الأوان للعودة إلى البدايات كجزء من الحل للأزمة الوجودية التي أحاطت بالإنسان الغربي.

حاجة الكائن البشري إلى قوى ماورائية يؤمن بها ويستند عليها, لإحداث التوازن الفكري والنفسي الذي يلازمه. وهي في الفكر الغربي مشكك فيها.

الهوامش والإحالات

1. فراس سواح، الله والكون والانسان نظرات في تاريخ الأفكار الدينية، مؤسسة هنداوي، (د ط) ، المملكة المتحدة، 2016.
2. د. أحمد علي عجينة, أثر الكنيسة على الفكر الأوروبي, دار الأفق العربية, ط1, 2004.
3. ينظر: د. توفيق الطويل, قصة الصراع بين الدين والفلسفة, دار النهض العربية, ط3, 1979.
4. بن مزيان بن شرقي ،التاريخ والمصير، قراءات في الفكر العربي المعاصر، دار المغرب للنشر والتوزيع، ط1-2004
5. اندريه لالاند، موسوعة لالاند الفلسفية ، ت:خليل أحمد خليل ، منشورات عويدات بيروت, باريس ،ط2، مج2 ،2002.
6. هابرماس، القول الفلسفي للحداثة، ت: فاطمة الجيوشي ، منشورات وزارة الثقافة، سورية، دمشق،1995.
7. محمد سبيلا, الحداثة وما بعد الحداثة, دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 2000.

8. ر. ديكارت, مقال عن المنهج، ترجمة: محمود الخضيري، مراجعة وتقديم: د. محمد مصطفى حلمي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة 1985.
9. عبد الرزاق الداوي، موت الإنسان في الخطاب الفلسفي المعاصر، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت لبنان، ط1, 1992.
10. ايهاب حسن, ما بعد الحداثة إبهام المصطلح وغموض الدلالة.
11. هابرماسيورغن، القول الفلسفي للحداثة، مصدر سابق.
12. نورة بوحناش، فوكو ومأزق الأركيولوجيا، في أفق المعيارية، أوراق فلسفية، العدد 26، 2009-2010، القاهرة.
13. فوكوميشال، الكلمات والأشياء، ترجمة: مطاع صفدي، وأخرون، مركز الإنماء القومي،1990.
14. ليندا هتشيون، سياسة ما بعد الحداثية ، ترجمة: حيدر صالح، المنظمة العربية للترجمة, بيروت، لبنان، ط1, 2009.
15. إدوارد سعيد, الثقافة والامبريالية، ترجمة: كمال أبو ديب, دار الآداب، بيروت، ط 1، 1997م.
16. بن نبي، مالك, شروط النهضة, دار الفكر، سوريا، ط 9 – 2009 , مشكلات الحضارة وشروط النهضة، ترجمة: 17. عمر كامل مسقاوي ، وعبد الصبور شاهين، دمشق, دار الفكر,1986 , وجهة العامل الاسلامي، دار الفكر، سورية، 2009.
18. سمية عزام, من السرديات الكبرى إلى السرديات الصغرى: تصور مغاير(مقال) ، صحيفة العرب,2019/6/2م.
19. فريديريك نتشه، هكذا تكلم زرادشت، ترجمة، فيلكس فارس، مؤسسة هنداوي,(د ت), (د ط).
20. علي عزت بيغوفيتش، الإسلام بين الشرق والغرب، ترجمة: محمد يوسف عدس، دار النشر للجامعات ، مصر, ط2, 1997.
21. ديفيد هارفي, حالة ما بعد الحداثة بحث في أصول التغيير الثقافي، ترجمة: محمد شيا, مركز دراسات الوحدة العربية، ط1، بيروت، 2005م.

قائمة المصادر والمراجع :

1) فراس سواح، الله والكون والانسان نظرات في تاريخ الأفكار الدينية، مؤسسة هنداوي، (د ط) ، المملكة المتحدة، 2016.
2) د. أحمد علي عجينة, أثر الكنيسة على الفكر الأوروبي, دار الأفق العربية, ط1, 2004.
3) ينظر: د. توفيق الطويل, قصة الصراع بين الدين والفلسفة, دار النهض العربية, ط3, 1979.
4) بن مزيان بن شرقي ،التاريخ والمصير، قراءات في الفكر العربي المعاصر، دار المغرب للنشر والتوزيع، ط1 , 200
5) اندريه لالاند، موسوعة لالاند الفلسفية ، ت:خليل أحمد خليل ، منشورات عويدات, بيروت, باريس ،ط2، مج2 ،2002.
6) هابرماس، القول الفلسفي للحداثة، ت: فاطمة الجيوشي، منشورات وزارة الثقافة، سورية، دمشق،1995.
7) محمد سبيلا, الحداثة وما بعد الحداثة, دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 2000.
8) ر. ديكارت, مقال عن المنهج، ترجمة: محمود الخضيري، مراجعة وتقديم: د. محمد مصطفى حلمي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة 1985.
9) عبد الرزاق الداوي، موت الإنسان في الخطاب الفلسفي المعاصر، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت لبنان، ط1, 1992.
10) ايهاب حسن, ما بعد الحداثة إبهام المصطلح وغموض الدلالة.
11) نورة بوحناش، فوكو ومأزق الأركيولوجيا، في أفق المعيارية، أوراق فلسفية، العدد 26، 2009-2010، القاهرة.
12) فوكو ميشال، الكلمات والأشياء، ترجمة مطاع صفدي، وأخرون، مركز الإنماء القومي،1990.
13) ليندا هتشيون، سياسة ما بعد الحداثية ، ترجمة: حيدر صالح، المنظمة العربية للترجمة, بيروت، لبنان، ط1, 2009.
14) إدوارد سعيد, الثقافة والامبريالية، ترجمة: كمال أبو ديب, دار الآداب، بيروت، ط 1، 1997م.
15) بن نبي، مالك, شروط النهضة, دار الفكر، سوريا، ط2009،9.
16) بن نبي، مالك, مشكلات الحضارة وشروط النهضة، ترجمة: عمر كامل مسقاوي، وعبد الصبور شاهين، دمشق, دار الفكر,1986.

17) مالك بن نبي: وجهة العامل الاسلامي، دار الفكر، سورية، 2009.
18) سمية عزام, من السرديات الكبرى إلى السرديات الصغرى: تصور مغاير(مقال) ، صحيفة العرب,2019/6/2م.
19) فريديريك نتشه، هكذا تكلم زرادشت، ترجمة، فيلكس فارس، مؤسسة هنداوي, (د ت), (د ط).
20) علي عزت بيغوفيتش، الإسلام بين الشرق والغرب، ترجمة: محمد يوسف عدس، دار النشر للجامعات، مصر, ط2, 1997.
21) ديفيد هارفي, حالة ما بعد الحداثة بحث في أصول التغيير الثقافي، ترجمة: محمد شيا, مركز دراسات الوحدة العربية، ط1، بيروت، 2005م.